المحاضرة الخامسة حول:

إنتشار حركة التأليف في الجزائر

إنتشار حركة التأليف في الجزائر:

إن أغلب الإنتاج الفكري من التأليف خلال العهد العثماني يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالات الأدبية، ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون القرآن والحديث المنبع الذي يستند منه الجزائريون كل ألون تفكيرهم وأنماط حديثهم، حيث تميزت العلوم بالتقليد والحفظ والتكرار، وقد حاول عبد الكريم الفلون صاحب كتاب منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية الثورة على الجمود الفكري؛ لأن فقهاء الجزائر خلال القرن الأول من التواجد العثماني نادوا بتقديم الاجتهاد العقلي " الدراية " (الدراسات الاستكشافية القائمة على العقل) على التقليد " الرواية" فقد كانوا يرددون أقوال المتقدمين ويحفظونها حفظا سطحيا لا عقل فيه ولا تفكير ويتظاهرون بالحفظ وقوة الحافظة، فقد كان أحفظ الناس هو أعلم الناس ويوصف أحمد المقري بأنه كان أحفظ أهل ززمانه ولقب بـ: حافظ المغرب الأوسط.

فظاهرة الحفظ والتقليد جمدت الإنتاج العلمي في كل العلوم، وكان ابن العنابي من أوائل الفقهاء الذين دعوا إلى الثورة على الجمود العقلي وسيطرة التخلف على التعليم وأهله؛ بل دعى إلى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية، ذلك لأن أوربا في تلك الفترة كانت تعيش عصرا من النهضة (عصر التنوير). كما دعى إلى الحد من نشاط الدراويش الذين أضروا بالمجتمع حسب رأيه، وهو مؤلف كتاب السعي المحمود في نظام الجنود. وبناءا على ذلك يعتبر العهد العثماني فقيرا من حيث الإنتاج الثقافي والاهتمام بالعلوم

والفنون، حيث تفرغ العلماء إلى العلوم الشرعية والآداب والتواريخ المحلية، ولكن عنايتهم بتدوين الطب والحساب والفلك قليلة، وما كان شائعا من علوم وفنون لا يخرج عن التقليد ولم يكن ممارسوه يتمتعون بالإستقلالية في الفكر والعقل وروح الإبداع، وهو ما جعل الرحالة الأجانب الذين عاشوا في تلك الفترة يحكمون حكما قاسيا على علماء الجزائر ويتهمونهم بالسحر والشعوذة والتخلي عن تراث أجدادهم من علوم وفنون شاعت في التراث العباسي بالمشرق والعصر الأموي بالأندلس.

وكان ينظر إلى المهتم بهذه العلوم على أنه شاذ عن روح العصر والمجتمع وكتب ابن حمادوش وهو أحد فقهاء وعلماء الجزائر آنذاك بعد أن اطلع على كتاب في الطب مترجم إلى العربية: هو كتاب عجيب التأليف حسن الصنيع لولا أنه محشو كفرا تذل في الأقدام يجب التحذير منه، وهذا يدل على تراجع المستوى العلمي لعلماء الجزائر في هذه الفترة، والذي كان نتيجة حتمية لتقص إطلاعهم على جديد العلم والبحث العلمي المتطورة في بقاع أخرى من الأرض.ومن بين أشهر أعلام ومؤلفين هذه المرحلة نذكر مايلي:

01/- أحمد المقري (986 هـ- 1041هـ)الموافق لـ: (1578م- 1632م):

هو أحمد بن محمد بن يحي بن عبد الرحمان بن أبي العيش بن محمد أبو العباس. ينتسب إلى أسرة ذات علم، تعود أصولها إلى بلدة مقرة بمنطقة الحضنة بالشرق الجزائري، بينما هناك من يرى نسبة إلى قرية من قرى تلمسان.ولد أحمدا لمقّري بتلمسان سنة 986هـ/1578م ونشأ بها نشأة علم، حيث تعلم على شيوخها وفي مقدمتهم عمه أبو عثمان سعيد الذي كان مفتي تلمسان (1010هـ/ 1600م). (رحموني عبد الجليل، 2014، ص 146)حيث

توجه إلى فاس طالبا للعلم وهو في سن الرابعة والعشرين، في عصر أحمد المنصور الذهبي وهناك احتك بعلماء البلاط السعدي، واطلع على مختلف التآليف، ودرس على الفقيه إبراهيم بن محمد الأيسي، ثم زار مراكش حيث التقى بالعالمين: أحمد بن القاضي(ت1025ه/1616م)، وأحمد بابا التنبكتي (ت1036ه/1627م).(أبو القاسم الحفناوي، 1991، ص 62)

بعدها عاد إلى مسقط رأسه أين أكمل كتابة «روضة الأس» الذي كان قد بدأه في فاس أملا أن يقدمه للسلطان أحمد، هذا الأخير الذي وافته المنية قبل إتمام المقّري لكتابه، لكن عاد المقّري إلى فاس مرة ثانية ومكث بها هذه المرة خمس عشرة سنة11، حيث ألف «أزهار الرياض»، إذن كانت المقّري دينية - علمية، رحل بين الحواضر طالبا للعلم.

حيث تولى المقري الإمامة والخطابة بجامع القرويين بفاس ومنصب الإفتاء حيث كانت له مكانة مرموقة لدى السلطان الشيخ محمد المأمون السعدي، مما جلب للمقري المضايقات من طرف البعض، ثم إشتغل برواق المغاربة بالأزهر في مصر، ودس في الجامع الأموي وألقى خطبه في المجالس الخاصة أثناء إقامته بدمشق لمدة أربعين (40) يوما، كما كان في ركب الحج خمس (05)مرات. (رحموني عبد الجليل، 2014، ص-ص 146-147)

ويبدو من ترحال المقري أنه لم يكن مستقرا ولم يكن مطمئنا في محيطه، خاصة في مصر حيث لم يسعد بزواجه هناك، فإنفجرت مشاعر الشوق والحنين إلى وطنه. وكان يعبر عن ذلك شعرا ونثرا وتأليفا، حيث ألف

المقّري في شتى العلوم، في العقيدة، وعلوم القرآن والحديث، واللغة والنحو والأدب والتاريخ والتراجم كما وضع فهارس، وسنقتصر هنا على أشهر مؤلفاته والتي من بينها:

- **روضة الأس:** حيث يتضمن الكتاب مقدمة وثلاثة(03) أبواب فموضوعها التعريف بالشخصيات المغربية وعلى رأسها أحمد المنصور الذهبي، والمؤرخ المغربي عبد العزيز الفشتالي، والمؤرخ أحمد بن القاضي وأحمد بابا التنبكتي السوداني. كما احتوى هذا الكتاب على مجموعة من القصائد والموشحات التي لم تذكر في الكتب المتداولة
- **أزهار الرياض:** أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض نزولا عند رغبة أهل تلمسان ألفه المقّري في الفترة 1038/1013هـ بفاس16، وفي سيرة قاضي المغرب عياض بن موسى (ت544هـ)، بمراكش. حيث يتضمن أزهار الرياض في جزئه الأول نسب عياض وسقوط غرناطة في يد العدو الاسباني ورسالة أهل الأندلس إلى السلطان العثماني بايزيد ويتطرق في الجزء الثاني لسيرة القاضي النباهي وتأليفه، والقاضي أبي حفص عمر السلمي. أما الجزء الثالث فيعود

فيه للحديث عن محور الموضوع وهو القاضي عياض من حيث صناعة التأليف في المغرب. (شارف رقية، 2017، ص93)

- **نفح الطيب:** نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب الذي انتهى من تأليفه في القاهرة سنة 1039هـ، أما دوافع التأليف فيمكن اختصارها فيما يلي:

01- كون للمقري تجربة سابقة في الكتابة «أزهار الرياض» و«روضة الآس» لذلك جاء منهج التأليف سهلا.

02- كون المقري معاصر لتداعيات مأساة الأندلس، وبقاء جرحها في ضميره كمسلم.

03- تلبية لرغبة طلبة دمشق الذين كان يحدثهم عن لسان الدين الخطيب، ولرغبة وإلحاح إبن شاهين .

04- إعجاب المقري بالوزير الأندلسي الخطيب، وتأثره بمقتله وتعلقه به؛ لأنه يلتقي معه في الإحساس بالغربة؛ حيث لجأ ابن الخطيب إلى المغرب، بينما لجأ المقري إلى المشرق

حيث ينقسم كتاب : " نفح الطيب" إلى قسمين كبيرين؛ بحيث يشمل القسم الأول على ثمانية(08) أبواب كلها على الأندلس، فبعد المقدمة تضمن

رحلات المقري إلى مكة والمدينة والقدس ومصر ودمشق، ودافعيته للتأليف. كما تناول تقديما لدراسة تاريخية للأندلس مركزا على حب الأندلسيين للمعرفة والعلم ودورهم في ذلك.(شارف رقية، 2017، ص-ص94-95)

وقد خصص القسم الثاني للسان الدين بن الخطيب ويضم هو الآخر ثمانية أبواب، يعرف بابن الخطيب وبأسلافه الذين ورث عنهم المجد، وكيفية نشأته وترقيته، والمكائد التي لقيها حتى وفاته وذكر مشايخه، وتلاميذه وأولاده، وأهم آثاره. وعليه فإن كتاب نفح الطيب هو عبارة عن كتاب موسوعي صور لنا الحياة السياسية خاصة مأساة الأندلس والهجرة الأندلسية إلى مناطق المغرب، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والعلمية، فهو بذلك معجم مفصل لشتى الأماكن والأعلام وبفضل هذا الكتاب يعد المقري أخر أعلام الثقافة العربية الإسلامية الذين فرضوا أنفسهم في المغرب والشرق.

وتوفي المقّري وهو يكمل كتابه الموسوعي: "نفح الطيب" سنة (1041هـ/1632م)، ودفن ي قرافة المجاورين بالقرب من جامع الأزهر بمصر.

02/- الناصري أبو راس: هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصري بن علي بن الأديم بن معروف بن الله بن عبد الجليل المعسكري المشهور بأبي راس، حيث ولد الناصري بين جبل كرسوط، نشأ المؤلف فقيرا وظل كذلك طيلة حياته؛ مما قاده إلى التسول ولا سيما وأنه فقد والديه وهو سن الطفولة ولكنه يبدو من قوله: "أعطاني أبي هذه الدنيا الفانية وأعطاني أرسطو حياة خالدة أنه كان زاهدا في الدنيا وشغوفا بالعلم، حيث تجاوز عدد شيوخه ثماني وثلاثون أستاذا من حواضر المغرب والمشرق، نذكر على سبيل المثال شيخه، عبد القادر المشرفي، والشيخ المرتضي.

حيث تولى الناصري عدة مناصب كالإفتاء والقضاء والتدريس لمدة ست وثلاثون سنة. كما أن إنتاجه العلمي كان حافلا فحسب تلميذه أبو حامد المشرفي في كتابه"ذخيرة الأواخر والأول"أن كتب الناصري تزيد عن الخمسين (50) كتابا، ومن بين أهم مؤلفاته:(شارف رقية،2017، ص96-97)

- درء الشقاوة في فتنة درقاوة.
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.
- المعالم الدالة على الفرق الضالة
- حلتي ونحلي في تعداد رحلتي

- الزهرة الوردية في الملوك السعدية

وتوفي أبو راس الناصر سنة 1238هـ (رحمون عبد الجليل،2014، ص149)عن عمر 73 سنة بالقرب من منزله ومن مسجده بضاحية بابا علي بمعسكر، وبني فوق قبره قبة المذاهب الأربعة؛ لأنه كان يأخذ فتواه من المذاهب الأربعة.

03/- عبد الكريم الفكون: هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون، حيث أنه ينتمي إلى عائلة ذات تاريخ عريق ودور فعال في المجتمع القسنطيني خلال العهد العثماني.

ولد عبد الكريم سنة988هـ الموافق لـ:1580م، فكان أول مولود لأبيه وعاش في كنف أبيه الأربعين(40) سنة الأولى، حيث كان ينوب عليه في الصلاة في الجامع الكبير، ولما كان أبوه مدرسا كان أول معلم له، بالإضافة إلى قائمة كبيرة من الشيوخ، نذكر منهم:

- يحي الأوراسي.
- سليمان القشي.
- عبد العزيز النفاتي.

حيث نشأء عبد الكريم الفكون في جو غلب عليه الطابع العلمي؛ نظرا لمكانة أبيه وإستفادته من تردد علماء تونس والمغرب وبعض المشارقة على مدينة قسنطينة، فهو لم يغترب كالمقري لطلب العلم بل إكتفى بثقافته المحلية، بالرغم من رغبته في الفرار من الوضع القائم أنذاك والذي تميز بالفوضى والظلم والجهل في العالم الإسلامي. (شارف رقية، 2017، ص-ص96-97)

وبالرغم من أن الفكون ألف إلا أنه كان مدرسا وواعظا بالدرجة الأولى حيث درس النحو خاصة، وقد كان يجيز تلاميذه بدار الجامع الكبير الذي هو قريب من دار العائلة والصهر على أوقافه قبل وفاة والده، حيث كان عمره 57 سنة وبعد وفاة والده ورث عنه رسميا الإمامة والخطابة والتدريس ورعاية أوقاف الجامع التي كان يتصرف فيها بما يراه صالحا. وترك عبد الكريم الفكون عدة مؤلفات منها :

- منشور الهداية.
- فتح اللطيف.
- محدد السنان في نحو إخوان الدخان. وهو كتاب في تحريم الدخان.

- ديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.
- حوادث فقراء الوقف.

وتوفي الفكون عبد الكريم في سنة 1662م بالطاعون.

قائمة المراجع المعتمدة في المحاضرة:

01/- نصر الدين سعيدوني،(1999) من التراث الترايخي والجغرافي في المغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافين، ط01، دار الغرب الإسلامي، لبنان.

02/- أبو القاسم الحفناوي،(1991) تعريف الخلف برجال السلف، الجزء الأول، الجزائر.

03/- شارف رقية: حركة التأليف التاريخي الجزائري في الفترة العثمانية- نماذج من المؤرخين، مجلة قضايا تاريخية، العدد 06، 2017.